الفصل الأول

جغرافية بلاد العرب

تقع بلاد العرب بين الهند والصين وما والاهما إلى الشرق ، و بلاد الحبشة والصومال والسودان ومصر ومن ورائها أورو با إلى الغرب ، والعراق والجزيرة والشام إلى الشمال ، وجزيرة سقطرى وساحل أفريقية الشرقى إلى الجنوب . فهى ، إذن ، وسط العالم المعمور قديماً ؛ وهى بحكم موقعها وسيطة فى تبادل سلع تلك الأقاليم المختلفة المناخ والمتباينة الغلات . وكذلك كانت منذ عرفها التاريخ قبل مولد المسيح عليه السلام بألف وخمسمائة عام .

وكأنى بالطبيعة التى حابتها فى توسط موقعها لم تقف عند هذا الحد من المحاباة ، بل جاملتها فى ناحية التضاريس كذلك ، بحيث تكون مزايا الموقع مخصصة لأهلها : ذلك بأنها أحاطتها بسور جد متين لا يسهل على غير أهلها التسلل خلاله إلى قلبها . وما كان لأجنبى أن يتوغل فيها وهو إذا أراد دخولها من الشمال اعترضته صحراء النفود المترامية الأطراف وفيها كثبان الرمل المتنقلة الخالية من النبات ، بينما بقيتها ينبت عشبها فى الشتاء والربيع فى مواطن مختلفة ومبعثرة ومتباعدة أحياناً ، بحيث لا يهتدى إليها إلا أهلها الذين نشأوا فيها وعرفوا مسالكها . وهم — على قلة عددهم — يتنقلون فى جنباتها بمعيزهم وشائهم و إبلهم و يقاسون شظف العيش .

وإذا أخذنا برأى بعض الجغرافيين وأدخلنا بادية السماوة والحماد فى حدود جزيرة العرب ، كانت الكارثة أعظم على من تسول له نفسه اختراق إحداهما فإنهما تكادان تكونان عديمتى الماء والنبات ، إذ لا عيون ولا آبار بهما . وغاية ما يبل الصدى غدران أو قل برك طبيعية متباعدة وخزانات صناعية يحفظ فيها ماء المطر ، وعليها علامات خاصة يعرفها أهل هذه الجهات ولا يفطن إليها غيرهم . ومثال ذلك أن خلفاء الإسكندر المقدونى حاولوا غزو بلاد العرب فباءوا بالفشل لقلة الماء والجهل بالمسالك .

فإذا اجتاز الأجنبى الحماد أو بادية السماوة وقطع النفود الكبرى اعترضته هضبة مرتفعة سميت نجداً لإرتفاعها ؛ وهى تشغل وسط الجزيرة منحدرة فى شىء من الإنتظام إلى الشمال الشرقى . ويفاجأ داخلها من ناحية الشمال بجبل شمر المسمى قديماً جبلى طىء : أجا وسلمى : وهما سلسلتان تبدآن قرب خيبر وتسيران متوازيتين تقريباً فى اتجاه شمالى شرقى مسيرة ٥٦٠ كيلو متراً وهما من الجبال الوعرة على ما فيهما من مراع ومزارع متفرقة أهمها حول حايل التى اتخذها آل الرشيد عاصمة لهم إلى أن أخرجهم منها الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢١

فإذا اقتحم الأجنبى نحو نصف هضبة نجد اصطدم بسلسلة جبال أخرى أشد وعورة من جبل شمر هى سلسلة جبل طويق التى تبدأ شرقى مكة وتسير فى وسط الهضبة نحو الشمال الشرقى . وفى وديانها المحصنة تحصيناً طبيعاً نشأت الدرعية وتقع فى منخفض يطوقه جبل طويق وفروعه وليس لهذا المنخفض غير طريقين ضيقين لا يتسع الغربى منهما لأكثر من جمل واحد . ولما يعزب عن أذهاننا ما بذله إبراهيم باشا فى الاستيلاء عليها ١٨١٨ .

ولا يكاد الأجنبي يتخطى جبل طويق و بقية الهضبة حتى يواجهه الربع الخالى الذى يشغل مساحة كبيرة فى الجنوب الشرقى من الجزيرة والذى ما يزال مجهولاً إلى اليوم على الرغم من تقدم وسائل الإنتقال . و إذا كانت فى عمر المخاطر بقية فقد ينظر من فوق الهضبة إلى مشرق الشمس فيرى صحراء أقل خطراً من الربع الخالى هى النفود الصغير أو الشرقى . و إليكم ما كتبه عنها المرحوم أمين الريحانى وقد عبرها فى ركاب الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢٤ :

« النفود بين القصيم والكويت ووراءها الدهناء . وكلها على اتساعها أجف من الإسفنج فى دكان عطار . النفود عدة جبال من الرمل تمتد طولا من الشمال إلى الجنوب وعرضاً من الغرب إلى الشرق وهى تدعى دعوصاً علو الدعص[1] يتراوح بين ٥٠٠ قدم ، ٧٠٠ قدم (١٥٣ متراً إلى ٢١٤ متراً) . و بين كل دعص وآخر أربعة أميال نزولا وصعوداً . أحد عشر دعص هى ، بل إحدى عشرة كربة كل واحدة أشد من الأخرى . إن أصعب السير على الركب والركائب هو السير فى النفود ، ولا أثر البتة لطريق فيها ، ولا مهرب من أمواج رمالها : تصعد الذلول فى الدعص إلى رأسه وهى تربخ[2] ، فتغوص حتى الرسغ ، فتجىء الخطوة الواحدة وفيها قد بذل جهد عشر خطوات ، فتئن الرحال من شدة الحال .

أما فى النزول فتنتقم من الدعص الذلول : فتروح هاوية غاوية ، فتغوص فى الرمل حتى الركاب . فتجىء الخطوة مقدار خمس خطوات ، وفيها للراكب خمس نكبات . النفود — ذلك البحر الرملى الذى تعالت أمواجه جبالا ،

---

(١) الدعص مايعبر عنه عادة بلفظ كثيب الذى يجمع على كثب وكثبان .

(٢) يغشى عليها .

وهبطت جباله أمواجاً ، فضاق فى اجتيازه حتى صدر الدليل . وما كنت أظن ونحن نخوض عبابه أن له نهاية تنتهى عندها الشدة والعذاب .

أما الدهناء فقليلة الكثب والتجوفات متنوعة المرعى غزيرة الأعشاب » و بعد ذلك يجد الأجنبى نفسه فى سهل ماؤه الجوفى قريب من سطح الأرض ومن أجل ذلك سمى الحسا . وكان قديماً جزءاً من السهل الغرينى الذى كونه دجلة والفرات حين كانا منفصلين . أما القسم الشرقى من ذلك السهل الغرينى القديم فهو اليوم خليج فارس . ولا يصعب قطع الحسا إلى ساحل خليج فارس .

أما إذا جاء الأجنبى من الشرق فعليه أن يخاطر بعبور البحر الأحمر ومن أسمائه القديمة خليج العرب و بحر فرعون — وهو بحر قليل المرافىء الطبيعية كثير الشعاب والجزيرات المرجانية . و يقص علينا سترابون من صعوبات الملاحة فى هذا البحر أن السفن التى كانت تمخره لم يكن لها بد من أن تقضى الليل راسية فى مأمن خوفاً من أن تحطمها الجزيرات المرجانية . وأنه لاتقاء هذه الأخطار كانت القاعدة أن تسير السفن فى هذا البحر نهاراً فقط . و يحدثنا أن أشد أجزاء هذا البحر خطراً الخروج من القلزم بسبب شدة الرياح وتغير اتجاهاتها .

و يأتى ابن جبير فيخوفنا أهوال السفر فى البحر الأحمر فيقول « أرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة . فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه المعترضة فيه ، ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها . ور بما سنحت الجلبة (السفينة) بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تخللها فتسمع لها هداً يؤذن باليأس . فكنا فيها نموت مراراً ونحيا مراراً . فسبحان مسخرها على تلك الحالة والمسلم فيها لا إله سواه » .

ويضيف ما ينبغى أن يحرزه الملاح من المهارة فيقول « وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية فى التصرف بالجلبة أثناء هذه الشعاب أمراً ضخماً : يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان ، السلس القياد ، ويأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه » .

فإذا عبر البحر بسلام حاول النزول بالبر فلم يجد على الساحل ثغراً يستحق الذكر ، فضلا عن أن الصخور المرجانية الغاطسة والجزيرات التى تحاذيه فى أكثر أجزائه تجعل الملاحة خطرة ، لأن ينبع وجدة والحديدة والمخا وما إليها مما نسميه ثغوراً ليست إلا قرى ساحلية ليس لها أهمية ذاتية جغرافية ، وإنما تدين بشهرتها لمؤخرها . ومثال ذلك أن جدة لم يكن ليعرفها المسلمون جميعاً لولا أن فى مؤخرها مكة المكرمة وما يرتبط بها من فريضة الحج . وما تزال صعوبة النزول بهذا الساحل ماثلة إلى اليوم فيما يعانيه حجاج بيت الله الحرام كل سنة من وقوف السفن بعيدة عنه وانتقالهم إليه فى زوارق صغيرة .

فإذا نزل السائح فى الجزء الشمالى من الساحل الغربى فأمامه السهل الساحلى الضيق المسمى مدين وهو قاحل للغاية وبحسبنا دليلا على ذلك قصة موسى عليه السلام وبنات شعيب . ويصادفه بعد ذلك سلاسل جبال السراة المعروفة باسم جبال الحجاز والتى تمتد من الشام إلى اليمن موازية لساحل البحر الأحمر بوجه عام . ويناهز ارتفاع بعض قممها هنا ٢٠٠٠ متر .

وإلى الشرق من السراة نطاق صحراوى من نوع النفود يأنس فيه المسافر بما يرى من الماء والعشب في بعض نواحيه ، وبما يسمع من الأهلين المثقفين من أن هذا العشب وذلك الماء هما اللذان أغريا العرب الأقدمين باتخاذ هذا

النطاق طريقاً لقوافلهم بين اليمن والشام ، وهما اللذان ما برحا يغريان الحجاج والتجار بسلوك هذا الطريق إلى اليوم . فإذا جاوز هذا النطاق الصحراوى الضيق نسبياً فى مسيره إلى الشرق فهناك هضبة نجد بسلاسل جبالها ثم النفود الصغير ثم الدهناء ثم سهل الحسا إلى خليج العجم .

أما إذا اختار أن ينزل إلى البر فى الجزء الجنوبي من الساحل — فى الحديدة مثلا — فصعوبة الساحل كما وصفنا ، إلا أن السهل الساحلى هنا أرحب صدراً من سهل مدين ، وفيه أنهار صغيرة يصل بعضها إلى البحر ويقصر بعضها دون ذلك ، ولكنها مع هذا وبانضمام بعض العيون والغدران إليها ، تروى أجزاء من هذا السهل تكفى لإنبات المراعى فى بعضه وزرع البعض الآخر ؛ لكن المسافر لا بد أن يشكو شدة الحر وركود الرياح ، وهما السببان اللذان دفعا العرب إلى تسمية ما يقع من هذا السهل فى الحجاز وعسير واليمن باسم تهامة ، لأن التَّهَم (بوزن تعب) هو عندهم شدة الحر مع ركود الريح

ويسرع المسافر إلى التخلص من هذا الضيق فيعتلى جبل السراة كما اعتلاه شرق مدين ، إلا أنه هنا يرتفع فى بعض قممه إلى ٣٠٠٠ متراً ويتسع كثيراً إلى الشرق ، ويجىء بعده الربع الخالى وحاله أشهر من أن تعرف .

والمحاباة الثالثة التى ادخرتها الطبيعة لأهل هذه البلاد ، أنها بعد كل ما يقال عن وعورة سواحلها ليست خالية من الثغور الصالحة ، بل إنك لتجد فى عمان مرفأ « مسقط » يفتح صدره للسفن المقبلة من جنوب فارس ومن الهند وما والاها شرقاً . وتجد إلى الشمال منها على ساحل الخليج الفارسى مرافىء أخرى اشتهرت منها فى العصور القديمة جرة .

فإذا نظرت إلى الجنوب الغربى فهناك ثغور جيدة أهمها عدن وتقع على خليج حسن تحيط به الجبال فتحمى السفن من العواصف . وقد بلغ من إحاطة الجبال بعدن أن الطريق منها إلى سائر اليمن منقور بعضه فى الجبل . ومن أجل ذلك كانت عدن مخزن السلع من قديم الزمان ولا عجب فهذا الثغر الصالح يواجه الساحل الشرقى من أفريقية ذلك الساحل الذى اتصل العرب به فى زمن مبكر وجلبوا منه الذهب والعاج والرقيق و بعض الأفاو يه .

والمحاباة الرابعة أن جزيرة العرب ليست كلها صحراء قاحلة كما يتبادر إلى ذهن الأجنبي عنها . فإنك إذا استثنيت الربع الخالى و بادية السماوة والحماد ، وجدت صحاريها الأخرى يكسوها العشب فى الشتاء والربيع ويهرع السكان إليها بقطعانهم كما هو الشأن فى النفود الكبرى ، والحال أحسن من ذلك فى الدهناء كما لمحت من وصف الريحانى لها .

و إذا انتقلت إلى الحجاز وجدت جزءا لا يستهان به من نوع المراعى الجيدة . والشأن فى نجد خير من ذلك إذ لا يقل مقدار ما يصلح للرعى والزراعة عن نصف مساحته . و إلى الشرق من نجد توجد الحسا وهى كثيرة الماء والمرعى والزرع . وأفضل منها فى هذه الناحية عمان حيث تجرى النهيرات من الجبل الأخضر فيجود السهل الساحلى بالنبات والأشجار . فإذا نزلت وادى حضرموت فهو على مثل ذلك ، و إذا بلغت بلاد اليمن راعتك مزارعها وفاكهتها وأشجار بخورها وصموغها فنسيت أنك فى بلاد يزعم الأجانب أنها كلها صحراء .